الخاصة الاجتماعية للشخصية

نستطيع أن نميز بين الذكاء والشخصية بأن الأول هو حدة الذهن ، والثانيـة هى حدة الإرادة . ونستطيع أن نزيد على ذلك فنقول إن الذكاء أغلبه ان لم يكن كله موروث لا يزيد إلا قليلا أو لا يزيد بتاتا بالوسط . أما الشخصية فأغلبها مكتسب . ثم نزيد على ما قدمنا بأن الذكاء انفرادى — اذا حذفنا من اعتبارنا اللغة — أما الشخصية فلا بد أن تكون اجتماعية .

و يقول الفرنسيون فى أمثالهم : " المدفة أقوى من الشراع " لأن الدفة هى التى توجه أما الشراع فقوة غشيمة قد تحمل السفينة الى الصخرة وتحطمها . وكذلك الشأن فى الذكاء والشخصية . فإن الذكاء هو الشراع . هو القوة الغشيمة التى تستطيع أن تؤدى الى الخير أو الشر والى الخدمة الاجتماعية أو الى الاجرام الاجتماعى . ولكن الشخصية هى الدفة ، هى التى توجه هذا الذكاء وتستخدمه .

وقد لا يكون هناك أى فرق فى مقدار الذكاء الفطرى — وكل ذكاء فطرى تقريبا — بين عالم مكب على اكتشافه فى المعمل و بين مجرم يتقصص فى الظلام للفتك بالسابلة واغتصاب ما يحملون . ولكن هناك فرقا عظيما لاشك فيه بين شخصية الأول وشخصية الثانى . لأن الأول عاش فى مجتمع معين حمله منذ الطفولة على أن يعجب ببعض القصص التى تشيد بذكر المخترعين أو المكتشفين ثم نشأ على التلمذة فى مدارس وجهته وجهـة علمية واختلط بطبقة من المعلمين والأساتذة رأى فيهم قدوة فكانوا له بمثابة البوصلة تعين اتجاهه . ومن هنا تكونت شخصيته التى تكشفت فى النهاية الى عالم بحاثة ينشـد المجد والسعادة والمكانة فى موضوع يبحثه فى معمله لخير البشر .

أما الثانى الذى لا يقل ذكاء عن الأول فقد عاش فى مجتمع معين حمله منذ الطفولة على أن يعجب بقصص المجرمين الذين سرقوا أو قتلوا وعجزت الشرطة عن القاء القبض عليهم بل لعله فى صباه قد ارتكب بعض السرقات الصغيرة فى الحقل أو المنزل المجاور . و بدلا من أن يجد اللطمة الرادعة من أبيه وجد التستر من أمه . ثم بلغ الشباب فعرف اخوانا له يسيرون معه فى اقتحامات مختلفة و يدارى بعضهم على بعض فكان هؤلاء الاخوان دفة وجهته وجهة الاجرام .

فنحن هنا إزاء شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف مع أن الذكاء قد يكون سواء بينهما لا يزيد أحدهما على الآخر فيه . و إنما هى البيئة الأولى أى المجتمع الأول حين يكون التأثير الأخلاقى عظيما ، ثم ما تلا ذلك من مجتمعات ، نصبت أهدافا وعينت غايات .

أذكر أنى عرفت أحد المجرمين وكنت أقاعده وأسامره واستدرجه الى ذكر جرائمه الماضية ، فما كان أشد استغرابى له حين كان يقص علىّ اقتحاماته فى لهجة الاعجاب

بنفسه بل الحماسة، حتى كان أحيانا يقف من فرط التأجج العاطفى حين كان يصف بعض المواقف : كيف سرق هذه البقرة، وكيف فر من هذا الخفير، وكيف استطاع أن يخدع السجانين ويهرب الى السجن النقود والدخان وغيرهما ، ولم ألحظ عليه قط أنه كان يخجل من ذكر هذه الجرائم أو تداخله ريبة فى أنه لم يكن شريفا . فلماذا ؟

لأنه نشأ فى مجتمع كون له شخصية معينة هى شخصية المجرم ، ولأن هذا المجتمع كان أفراده يمارسون الجريمة ويقصون قصصها أمامه فيثيرون خياله وينصبون أمامه قدوة يقتدى بها ويعينون له هدفا. وفى أثناء هذه التربية للجريمة يكون قد رسم لنفسه ميزانا للفضيلة والرذيلة . فالفضيلة عنده هى الجرأة والمكر والتلصص والاقتحام والرضى بالعقوبة كأنه بطل أو شهيد والرذيلة عنده هى الاستكانة والرضى بكسب العيش بالتعب والمواظبة والقناعة بالأجور التى ينالها غيره من أبناء قريته أو مدينته .

وعلى هذا يجب أن نقول إن المجتمع هو الذى يربينا ويكون لنا شخصياتنا . مجتمع البيت أولا، ثم مجتمع الشارع وصبيان اللعب، ثم مجتمع المدرسة ومجتمع الحرفة، ثم القهوة والنادى والمكتب والجريدة ملى تقرأ والإذاعة التى تسمع . فكل هـذه الأشياء هى مجتمعنا الذى يصدمنا فى اليوم أكثر من عشرين مرة ويكون لنا أخلاقنا ويبنى شخصياتنا ويوحى إلينا ويقدم لنا القدوة ويعين لنا ما يجب أن نعجب به ونحب ، أو ما نستقبح ونكره . ونحن نقيس الشئون الاجتماعية بأقيسة المجرمين إذا كنا قد نشأنا فى بيئة — أى مجتمع — المجرمين. وبأقيسة العلماء إذا كنا قد نشأنا فى مجتمع العلماء .

وهذه الأقيسة يمكن أن تتغير بتغيير المجتمع ، والتغير بالطبع يكون أيسر إذا ابتدأ قبل اكتمال الشباب ، ولكنه ممكن مع ذلك حتى بعد هذه السن. فلو أننا نقلنا صبيا من الفلاحين عندنا أو بدويا من الصحراء إلى نيويورك فلن تمضى عليه سنوات حتى يكتسب شخصية أمريكية تراها فى كل شىء من أخلاقه، من إيقاع القدمين فى السير، إلى الروح الديمقراطى، إلى تعلم الرقص إلى الإيمان بالنجاح المالى إلى غير ذلك من سمات الحضارة الأمريكية .

فالمجتمع الحسن هو المدرسة المثلى لتربية الأخلاق ، والمجتمع السيئ هو شر ما يمكن أن يصاب به صبى فى طفولته وصباه ؛ والشخصية تتكون بالاجتماع ولا يمكن أن تنمو بالانفراد . واذا شئنا أن نبنى شخصيات سامية للمستقبل فيجب أن ننظر الى بيوتنا هل هى تؤلف فيما بينها مجتمعات حسنة ، وهل الحرب الأهلية القائمة داخل عائلاتنا يمكنها أن تبنى هذه الشخصيات ، ثم بعد ذلك يجب أن ننظر الى الشارع والقهوة والنادى والمجلة والإذاعة هل هى جميعها تبنى أبناءنا أم تهدمهم .

إن الشخصية ارادة أى نزعات واتجاهات. هى الدفة التى تعين للذكاء وجهته. وإنما تعين هذه الوجهة بما نتعلم من المجتمع الذى نعيش فيه .